

الباب الأول

مصادر الحقيقة عند الغزالي

الفصل الأول : الحال العلمية والسياسية في عصر الغزالي .

الفصل الثاني : حياة الغزالي .

الفصل الثالث : ملاحظات على كتب الغزالي .

الفصل الرابع : الغزالي كما فهمه الباحثون .

الفصل الخامس : الغزالي كما فهمته .

oboi.kandl.com

الفصل الأول

الحال العلمية والسياسية

في عصر الغزالي *

كان العلماء في ذلك العهد جادين في طلب العلم وتحصيله، فكان هنالك حركة علمية دائبة، غير أنهم ما كانوا يطلبون العلم للعلم بل كانوا يتخذون منه وسيلة للزلفى إلى الرؤساء؛ لذلك كانوا يعكفون على العلم الذى يجدون نفوس الرؤساء ماثلة إليه وطروبة به، فكان هدفهم الذى يسعون إليه الجاه، والشهرة وذئوع الصيت إلا من عصم الله .

وهذا ما جعل العلماء يلقون بأنفسهم فى أحضان الرؤساء ويتشبهون بأهلبهم^(١). وفى الوقت ذاته كان الرؤساء فى حاجة إلى مؤازرة العلماء لأن الدين كان هو الوسيلة الوحيدة فى ذلكم الوقت لإقامة صرح ملك ودك آخر؛ إذ خلط الزعماء السياسيون الدين بالسياسة ليصبغوا أغراضهم بصبغة دينية حتى يوهمو العامة أنهم بعيدون عن المطامع الشخصية، وقد عرف الرؤساء بذلك كيف يسيطرون على نفوس العامة لأن الدين له تأثير كبير على النفوس فهى إلى دعائه أشد استجابة من أى دعاء آخر .

ولذلك أنشأ السلاجقة - حكام تلك الفترة التى نورخها - المدارس فى « بغداد » و « نيسابور » تعلم مبادئ أهل السنة - لأنهم كانوا سنيين - وتنتشر دعوتهم بكل ما أوتيت من قوة .

وقد كان « نظام الملك » وزير آل سلجوق صاحب الفضل الأكبر على هذه المدارس، أنفق عليها عن سعة، حتى بلغت نفقاتها فى العام ٦٠٠,٠٠٠ دينار^(٢). كانت هذه الأموال الطائلة تنفق على الأساتذة والطلاب جميعاً . فراجت

* فى القرن الخامس الهجرى تقريباً .

(١) وقد أرخ الغزالي لذلك فى كتابه « فاتحة العلوم » ص ٤٧ .

(٢) الأنخلاق للدكتور زكى مبارك ص ١٦ .

سوق العلم ، وأحب العلماء نظام الملك ، وتعشقوا مجلسه واتخذوا منه ندوة علمية .
ويحكى عن نظام الملك هذا أيضاً أنه كان يحب الصوفية . حدثوا^(١) أنه كان
له شيخ فقير . كان إذا دخل عليه يقوم له ويجلسه في مكانه . ويجلس بين يديه ،
ولما سئل في ذلك قال : « إنه يذكرني بعيوب نفسي » .

ولما وثى به إلى « ملك شاه » وقيل^(٢) . إن الأموال التي ينفقها « نظام الملك »
على المدارس تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية أجاب « نظام الملك »
« ملك شاه » : « إنى أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل . إذا نامت جيوشك
ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفاً بين يدي ربها . فأرساوا
دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت
وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعاتهم تبيتون ، وبركاتهم تمطرون وترزقون » .
وبما قوى الصلة بين العلماء والحكام أيضاً ، أنه قد لاح لهما في الأفق عدو
واحد مشترك ، أقض مضجعهم . وأقلق راحتهم . وهددهم في دينهم ودولتهم ،
وأعنى به الفلاسفة والمعتزلة ، قالت^(٣) الهملال : [أنشأ السلاجقة المدارس الإسلامية ،
والمجالس الجدلالية في الشرق ، والفاطميون — مثل ذلك — في الغرب ، هؤلاء يسعون
في إثبات تعاليم الشيعة ، وأولئك يلتمسون تأييد أهل السنة ، وكلاهما في خوف من
أهل الفلسفة والتعطيل] .

فلا عجب أن يتآمر الحكام ورجال الدين على الفلاسفة والمعتزلة هؤلاء
يطاردونهم بالسيف ، وأولئك يطاردونهم بالطعن والتحقير^(٤) ولم يصرف واحد من
علماء الإسلام عنايته إلى أن يطاردهم بسلاح الفكر الحر والنقد الجريء^(٥) .
وقد نتج من مطاردة الحكام ورجال الدين لأرباب الفكر أن الشعب اتخذ
من الكفر والزندقة سلاحاً يشهره في وجه من شاء من العلماء والباحثين ، فراجت
سوق الفتنة ، وخشى العلماء على أنفسهم . فراحوا يكتبون آراءهم في صدورهم ،

(١) الأخلاق للدكتور زكي مبارك ص ١٩ .

(٢) الأخلاق للدكتور زكي مبارك ص ١٦ .

(٣) أول العدد ٦ من المجلد ١٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) من « المنقذ » للقرن الثاني ص ٨٢ .

ويرقبون - في خلصة - فترا تغفل فيها عنهم أعين الرقباء ، ليبوحوا بها لتلاميذ يصطفونهم . أو يودعوها كتباً تحت ستار علم آخر .

اقرأ ترجمة أبي المظفر ^(١) الأبيوردى الذى تفقه على إمام الحرمين . تجد مترجمه يقول ^(٢) : [وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة] .

مما يدل على أن عقيدة العلماء كانت مثار أخذ ورد .

وروى ^(٣) « أبو سعيد » السمعاني أحد كتاب التراجم أنه استمع إلى دروس « على بن عبد الله بن أبى جراداة » المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . أثناء رحلته الدراسية إلى حلب . فذات مرة رآه أحد الصالحين يخرج من دار هذا الشيخ فسأله عن سبب زيارته . فأخبره بأنه يتلقى عنه علم الحديث . فغضب الرجل الصالح غضباً شديداً . وقال : « ذاك يقرأ عليه علم الحديث !! . قلت ولم ؟ ! . هل هو إلا رجل متشيع يرى رأى الحلبيين ؟ . فقال لى : ليته اقتصر على هذا ، بل هو يقول بالنجوم . ويرى رأى الأوائل ^(٤) » .

ولقد ذكر « جولد زهر » أمثلة كثيرة من هذا النوع ثم علق قائلاً ^(٥) : [فإذا كان الحال على هذا النحو فمن السهل أن نفهم كيف أن الكثيرين ممن كانوا يحرصون على حسن السمعة كانوا يسبلون قناعاً على دراساتهم الفلسفية . مظهرين اشتغالهم بها تحت ستار علم آخر من الغلوم حسنة السمعة .

وأوضح مثال لهذا وإن لم يكن هو المثال الوحيد « محمد بن على بن الطيب » المتوفى سنة ٣٤٦ هـ . فيذكرون عنه أنه كان إماماً عالماً بعلم كلام الأوائل إلا أنه خشى أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة بمظهر الفيلسوف ، فأخرج مذهبه في صورة المذاهب الكلامية ، التى لم تكن مع ذلك حائزة لرضى أهل السنة في عصره هى الأخرى ، ولكنها كانت على كل حال أقل خطراً من الفلاسفة الصريحة ، لأنها على الأقل نمت على تربة إسلامية] .

هذه هى الحال العلمية والسياسية في عصر الغزالي . وسنرى إلى أى حد أثرت فيه .

(١) المتوفى سنة ٥٠٧ هـ .

(٢) الأخلاق للدكتور زكى مبارك ص ٤٤ .

(٣) « التراث اليونانى » ص ٣٤ .

(٤) وكلمة « الأوائل » اصطلاح على الفلاسفة .

(٥) « التراث اليونانى » ص ١٣٤ .